ردع الظالم ، فاذا أشكل الأمر على القاضي ولم يعرف أيهما الظالم وجب عليه أن يبعث بالحكمين على نحو ما عند الشافعية » وجعل الحنفية ذلك حقاً من حقوق الحاكم يعمل به إذا اشتد النزاع بين الزوجين ورفع إليه الأمر . والأصل في ذلك قوله تعالى في سورة النساء « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريد إصلاحاً يوفق الله بينهما » فالذي يظهر من لفظ الآية إيجاب التحكيم على أولى الأمر إذا رفع إليهم نزاع بين زوجين أو هو إيجاب للتحكيم على من بلغه الأمر من الحاكم أو جماعة المسلمين ، فإن الخطاب في قوله « وإن خفتم » للمسلمين سواء كانوا أولى أمر أو غيرهم وذلك لأن الزوجين قد ارتبطا برباط عقد الزواج ووجد بينهما من الصلة ما يهتم بالحرص عليه ووجد بين أهلهما من وشائج القرابة بالمصاهرة ما لا يصح التساهل في توهينه وتقطع ما اتصل به ، ولهذا أمر الله تعالى عباده متى أحسوا بشقاق بين الزوجين وهو النزاع الشديد أن يختاروا من أهل الزوجين حكمين حكماً من أهل الزوج يرضاه وحكماً من أهل الزوجة ترضاه ليبحث كل مع صاحبه ويقف على أسباب النزاع وما عساه يكون من أسرار لا يقف عليها القاضي ولا أعوانه ، وعلى الحكمين أن يبذلا ما في وسعهما للتوفيق بين الزوجين المتنازعين وإلزام كل منهما بما يريانه لازماً في صلاح العشرة بينهما وحاسماً للنزاع فيما يستقبل من أمرهما فإذا لم يجدا سبيلا إلى الوفاق بعد بذل ما في طاقتهما فلهما أن يقضيا بالطلاق في بعض المذاهب على طريقة معينة إذا رأيا المصلحة فيه ، وبعض المذاهب لا يعطيهما الحق بل ينتهي عملهما بالعجز عن التوفيق بين الزوجين . وعلى كل حال فإيجاب التحكيم في أمر الزوجين معقول فإن ما يقع بينهما لو لم يصلح بنحو هذه الطريقة أفضى إلى فساد في البيوت بين الأولاد والأقارب ، ومثل هذا الفساد مما يسري وينتشر حتى يؤذي الأمة بتمامها في صلاتها بعضها مع بعض كما شوهد ذلك عند إهمال هذا الحكم الجليل من زمن طويل حتى كأنه لم يرد في التنزيل . فإذا كان ذلك الكاتب الفرنسوي يعني هذا الأصل ويشير إليه ويريد أن يقتبس به ما يقع بين العملة فذلك رأيه وحده والسلام .

١٤ رجب سنة ١٣٢٣

محمد عبده
مفتي الديار المصرية

الأدب والفن في أسبوع

قصة المخطوطات العربية :

كثر الحديث في هذه الأيام عن المخطوطات العربية ، ووجوب العناية بها ، وجمع شتاتها المفرق في خزائن الشرق والغرب ، ويجري الحديث في هذا فياضاً بالحماسة والغيرة ، وينادي الكثيرون بأن العناية بهذا في مقدمة ما يجب على الأمة العربية ، ولا عجب ! فان الشرق العربي اليوم في فترة يقظة يبحث فيها عن نفسه ، ويجاهد ليجمع بين يومه وأمسه .

وكان قد أذيع من قبل أن اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية معنية بهذا الأمر ، وأنها قد قررت في هذا خطة ستمضي عليها في إحياء التراث العربي وجمع المخطوطات النادرة المتفرقة ، سواء ماهو منها في حيازة الأفراد أو في ملك الهيئات والحكومات ، ولكننا لا ندري ماذا بلغت من هذه الخطة وماذا أجدت في هذا السبيل .

وللتراث العربي من قديم الزمن قصة ، بل مأساة أليمة مثلت فصولها ومشاهدها على مسرح الأحداث القاتمة والأيام المظلمة ، فقد انتهب هذا التراث أيام غارات التتار ، وفي الحروب الصليبية بالشرق ، والحروب الصليبية بالأندلس ؛ ثم كان أن غزا الأتراك العثمانيون أقطار الشرق العربي وبسطوا نفوذهم فكان أول ما قصدوا إليه أن نقلوا كثيراً من المخطوطات العربية إلى مكاتب الآستانة ، ثم كان أخيراً أن تسلط الغرب على الشرق فتسللت أيدي الأوروبيين على المخطوطات العربية بالسلب والسرقة والاحتيال حتى اكتظت بها مكاتب لندن وباريس وبرلين على حين أقفرت منها مكاتب العرب أنفسهم .

ولما اتجهت رغبة المغفور له أحمد حشمت باشا في مطلع هذا القرن إلى النهوض بمشروع « إحياء الآداب العربية » ، ونشر المخطوطات العظيمة النادرة ، كان أول ما فكر فيه هو الاعتماد على مكاتب الآستانة ، فسافر فعلا إلى هناك المغفور له

أحمد زكى باشـا ، وقام بتصوير ونقل كثير من المصادر العربية النادرة التى نشرتها ولاتزال تتولى نشرها دار الكتب إلى اليوم .

وفى هـذا المقام نرى من الوفاء للحق ، أن نذكر عالمين جليلين بالخير والثناء هما المغفور لهما أحمد تيمور باشا وأحمد زكى باشا ، فقد بذل هذان الرجلان كثيراً من الجهود الصادقة والأموال الطائلة فى العنـاية للحصول على المخطوطات العربية ، ولـكنا من الأسف لم نجد من يخلفهما فى هـذا السبيل ، لأن علماءنا — أعزهم الله — على اختلاف ألوانهم ودرجاتهم يؤثرون الوصول والمثالة من أقرب طريق .

وعجيب أى عجيب أننا لا نزال فيما نحقق من تاريخنا وآدابنا عالة على المستشرقين فيما ينقلون من آثارنا ومخطوطاتنا التى هى فى خزائنهم ، وعجيب أى عجيب أن تكون عندنا الجامعة الأزهرية العتيقة ، وجامعة فؤاد الأول ، وجامعة فاروق الأول ، ودار الكتب المصرية والمجمع اللغوى ، ثم ما شئت من هيئات ثقافية كثيرة ، حكومية وغير حكومية ، ولم تستطع هذه كلها مجتمعة أو متفرقة أن تنهض بعمل جدى فى هذه الناحية ، ولم تفكر كلها أو واحدة منها فى إرسال بعثة بشأن هذا التراث المنهوب .

إننى على يقين من أن بعث تلك المخطوطات النادرة سيصحح كثيراً من مسائلنا التاريخية والأدبية ، وإننى على يقين من أن إحياء هذا التراث الخالد سينصفنا أمام أنفسنا وأمام الأمم الأخرى ، فلعل الجامعة العربية تسدى فى ذلك ما فات غيرها ، وتنهض بما هو واجب عليها ومنوط بها ، ولعلنا نلمس لها قريباً فى هذا العمل الجهد المشكور .

تأبين الأمير شكيب :

بعد ظهر يوم الجمعة الثامن من هذا الشهر أقيمت حفلة تأبين كبرى بدار الأوبرا الملكية لفقيد العروبة المغفور له الأمير شكيب أرسلان اشترك فيها لفيف من الرجالات البارزين فى الأقطار العربية وأعلام الأدب والصحافة ، وحضرها كثيرون من الوزراء والكبراء وأهل الفضل ، ولقد جاءت هذه الحفلة عنواناً للأسى الذى شمل جميع أبناء العروبة على فقد ذلك المجاهد العظيم ، كما جاءت مظهراً من مظاهر الوفاء والتقدير للرجال العاملين ، وإنا — من الوفاء للحق — لنشيد فى ذلك بصنيع الرجل العظيم سعادة محمد على علوبة باشا ، لأنه هو الذى نهض بأداء هـذا الواجب عن مصر ، وجاهد لإقامة هذا الحفل براً بذكرى رجل وهب حياته للنضال عن الشرق والإسلام .

وتعاقب الخطباء والشعراء فى تأبين الفقيد . فألقى سعادة علوبة باشا رئيس هيئة الاحتفال كلمة ضافية أشاد فيها بمواقف الفقيد فى الجهاد للحق ، والكفاح فى سبيل العروبة ، والنضال عن حقوق العرب فى الحرية والاستقلال والكرامة .

وخطب معالى ابراهيم دسوقى أباظة باشا فقال : « لقد كان الأمير شكيب أرسلان الديدبان والحارس على الأقطار العربية ، فكان المراكشى إذا هددت مراكش ، والتونسى إذا نزل الضيم بتونس ، والمصرى إذا روعت مصر بحادث ، والعراقى ، والسورى ، واللبنانى ، واليمنى إذا اعتدى على بلد من هذه البلاد أو نشبت فيها أظافر الاستعمار وبراثن الاستبداد . ولقد خلا العرين من هذا الأسد الهصور ، ولـكنه خلا بعد أن نشر تعاليمه السامية فى كل مكان ، وبعد أن أعطى من نفسه القدوة الحسنة فى الوطنية والتضحية والإقدام ... »

وخطب الشيخ سامى الخورى وزير لبنان المفوض فى مصر خطبة استهلها بقول الفقيد:

فما العيش إلا أن تموت أعزة وما الموت إلا أن نعيش ونسلما

ثم قال : لقد كانت حياة الفقيد جهاداً مستمراً فى سبيل بلاده وهو عنها بعيد ، ولقد بقى على رغم البعد هدى للأوطان العربية جميعها ؛ تستنير بشعلة ذكائه الوقاد ، وتهتدى بنور حكمته الرصينة ، ثم دهمه الموت بعد أن عاد إلى بلده خافق القلب ، إذ لقيه حراً طليقاً من كل قيد ...

وألقيت فى الحفلة كذلك عـدة كلمات لممثلى الحكومات والهيئات العربية ، وكلها تتوارد على الإشادة بمواقف الفقيد ، وتصور مدى الفجيعة الشاملة بموته ، والخسارة الكبيرة بفقده . على أنها مما يجرى عادة فى مثل هذه المناسبة ، وليست مما يؤثر للتسجيل الأدبى .

وجاء دور الشعر ؛ فألقيت قصيدة لشاعر القطرين خليل بك مطران ، وقد كنت أنتظر من مطران فى هذا الموقف شيئاً كبيراً كثيراً ، فانى أقدر وفاءه لإخوانه ، وأعرف صلته بالفقيد ، ولـكن مطران اعتذر بحق اعتذاراً موجعاً أليماً إذ قال :

أبغى الرثاء له فيبرق خاطرى حزناً، ولكن أين صوب غمام؟!
لم يبق لى شعر ولا نثر وقد أخنى علىّ تقادم الأعوام ...

فكان اعتذاره هذا أبلغ وأوجع من أى إفاضة فى الرثاء .

ثم ألقى الأستاذ الشاعر على محمود طه قصيدة قوية الأسر، ابتدأها بتصوير الفجيعة بموت الأمير فقال :

رزء العروبة فيك والإسلام رزء النهى وفجيعة الأقلام
هو مأتم الأحرار فى متوثب بصفوفهم متسلسل مقدام

ثم أخذ فى تصوير حياة الفقيد فقال :

أأبا المثالين صوتك لم يزل فى الشرق وحى يراعة وحسام
لخلاص دار، أوفكاك عشيرة خضت الحياة كثيرة الآلام
واجتزت جسر العمر بين عواصف هوج، وموج مزبد مترامى
وشهرتها حرباً على مستعمر متجبر، أو غاصب ظلام
إرث الجدود الصيد أنت وهبته قلما يصاول دونه ويحامى
وشباب مهدور الدماء مجاهد فى الله عن عرب وعن إسلام

وهكذا مضى الشاعر إلى آخر قصيدته يصور حياة الفقيد فى شتى نواحيها بهذا الأسلوب الجزل، وقد كان من الموافقة المتواردة أن اتفق الشاعران فى الروى والقافية، وفى كثير من المعانى والتعابير التى قوامها حياة الفقيد .

وإنى بعد هذا لأسأل : أيكفى هذا الحفل فى الوفاء بدين الفقيد العظيم ؟ كلا ! فقد كان الأمير شكيب فى حياته وفى جهاده وفى مواهبه أضخم من هذا وأكبر، فمن الواجب على أبناء العروبة جميعاً أن ينهضوا بعمل يخلد ذكراه، وصنيع يحفظ آثاره، وينشر تعاليمه، وإنى لأعجب أن تهتم الجامعة العربية فتخاطب حكومة العراق لصيانة تراث الكرملى، ولا تؤدى هذا الصنيع لصيانة تراث الأمير شكيب ! !

وأين نحن ؟ !

يظهر أنَ الأمة المغلوبة على أمرها لا تدين بالحقيقة حتى تصدم رأسها، ولا تصيخ للنصيحة حتى تخرق أذنها، ولا تقتنع بأمر من تطورات الزمن والحياة إلا بعد فوات الأوان، وبعد أن يكون الشوط قد بلغ نهايته .

تلت هذا لنفسى إذ قرأت أن الدول التى تحالفت على إدراك النصر قد اتفقت أخيراً على إعداد العالم لتقبل ما تهدف إليه من المبادىء والأفكار. فرأت أن خير سبيل لهذا هو إعداد مجموعة كبيرة من الأفلام الثقافية التى تصور تلك المبادىء، وتنطق بتلك الأفكار وتوزيعها للعرض فى كافة أنحاء العالم على الشباب فى المدارس والأندية وسائر المنظمات .

وقلت هذا لنفسى أيضاً إذ قرأت أن هناك مفاوضات تجرى بين بعض المشتغلين بالسينما من المصريين والشرقيين، وبين فريق آخر من الانجليز لتكوين شركة انجليزية شرقية تقوم بعمل أفلام ناطقة باللغة العربية وتكون موضوعاتها ذات صبغة عالية، وستقوم هذه الشركة الضخمة بتوزيع أفلامها فى شتى أنحاء الشرق العربى

فأنت ترى أنها حرب دعاية، وأن السينما قد أصبحت أقوى أداة للتبشير بالمبادىء والأفكار، وإذا كان الحلفاء قد استغلوا هذه الأداة لبث دعايتهم على أوسع ما يكون فى الحرب فإنهم الآن كذلك يريدون أن يعتمدوا عليها وأن يستغلوها لنشر مبادئهم فى السلم . ونحن فى مصر، حكومة وشعباً، نرى هذا كله، وكأنه لا يعنينا فى شىء، وكأننا لا نرجو من دنيا المبادىء إلا أن نربط بالذيل .

عندنا سينما، وعندنا شركات، وعندنا أفلام . ولكننا نملؤها بأقذر ما فى المجتمع من انحطاط الميول وضراوة الغرائز وكل ما يضمن الرواج والإقبال من العامة وأشباه العامة، ثم نوزع هذه الأفلام فى الشرق العربى على أنها مظهر فننا وعنوان ثقافتنا ويا له من فن تافه وثقافة رخيصة .

فيا قوم حسبكم، لقد آن لكم أن تفهموا أن العالم يجد، وأننا لا نستطيع أن نمشى فى ذلك الموكب العالمى إلا جادين، أليس من الهوان والبخس والتفاهة أن لا تقدم شركة من تلك الشركات السينمائية فى مصر على إخراج فلم قومى يصور ناحية مجيدة من تاريخنا، ويحمل مظهراً صحيحاً من ثقافتنا ؟! بل أليس من التفريط والتقصير أن لا تعتمد حكومتنا على السينما — وقد أصبح لها الآن كل هذا النفوذ — فى بث ما ترجو من التثقيف والتهذيب. وما تنشده من الأصلاح والنهوض، وأن لا تجعلها أداة دعاية فى الشرق العربى ؟!

ولكننا أمة مغلوبة على أمرها، فنحن ننتظر دائماً حتى يعمل الغرب إلى آخر الشوط، ثم نبتدىء نفكر ماذا نعمل ؟!

الفلسفة الهندية القديمة :

يزور لندن الآن الأستاذ وديع البستاني للبحث عن أصول الفلسفة الهندية القديمة ، ويقولون إنه عثر على ستة مخطوطات نادرة ولا يزال يوالي البحث والمراجعة لإعداد دراسة مستوعبة عن الفلسفة الهندية القديمة .

والأستاذ وديع البستاني هو أحد فروع تلك الدوحة البستانية العريقة التي أسدت إلى الثقافة العربية خدمات جليلة في شتى نواحي اللغة والأدب والفلسفة ، وقد قام الأستاذ وديع منذ ربع قرن بنقل عدة كتب فلسفية طريفة إلى اللغة العربية ، وكانت لديه نزعة إلى الموضوعات الطبيعية التي يتجلى فيها صفاء الروح وجمال الكائنات ، ويظهر أن الفلسفة الهندية الفياضة بالنزعات الروحية قد استهوته فعكف على دراستها منذ سنوات ، وهو لا يزال يجد في هذه الدراسة لإخراج سفر شامل في هذه الناحية التي لا تزال معماة على أبناء العربية .

والمعروف أن الفلسفة الهندية القديمة كانت عنصراً من العناصر التي استمدت منها الثقافة العربية بالترجمة والنقل أيام العباسيين ، ففي البلاغة وفي الفلسفة وفي علوم الفلك والجبر والحساب نجد نصوصاً منقولة عن أصول هندية ، ونحن نقرأ هذه النصوص قراءة عابرة لأننا نجهل مصادرها ومراميها ، ولا نزال إلى اليوم في كل ما نعرف من معارف الهند القديمة عالة على المستشرقين ، وإنها في الواقع لإحدى العجائب ، إذ يتيسر لأجدادنا العرب بدافع نهمهم إلى المعرفة نقل المعارف الهندية والانتفاع بها والوقوف عليها ، ونحن لا نزال نجهل تلك المعارف جهلاً مطبقاً مع أن صلتنا بالهند قد توثقت ، ومعارفنا قد اتسعت وسبل الانتقال والبحث قد تيسرت .

إن الأستاذ وديع البستاني بعمله هذا يؤدي خدمة جليلة للعربية ، وإنها لفاتحة خير بدأها الأستاذ عبده حسن الزيات بكتابه الذي أخرجه حديثاً وموضوعه « حكايات من الهند » ، وإنا لنرجو أن يرود أبناء العروبة هذه الناحية على أوسع ما يكون ، فإن الثقافة الشرقية قوامها روح واحدة ، ووجهتها غاية واحدة ، وقد أصبح من الخطأ استقلال أمة بمعارفها ، فكيف والهند ليست غريبة عنا . .

كتاب من غير أقلام :

تناولت عدداً حمله البريد أخيراً من مجلة سورية خصصت صفحاتها للأدب والمباحث الثقافية ، وفي عنوانها أنها « صورة الفكر المعاصر » ، فوقعت في صفحاته الأولى على مقال بعنوان « الأديب من أين يبدأ » ، فتغاضيت عما في العنوان من خطأ شائع درج عليه كثير من الأدباء المعاصرين ، إذ يؤخرون اسم الاستفهام وإن كانت اللغة تقضي له بالصدارة ، وأخذت أقرأ ما تحت العنوان فقرأت في السطر الأول « إني بالأدب شغوف » وفي السطر الثاني « وكيف عرفت أن ميولك منصرفة إلى هذه المنصرف » وهكذا أخذت أنتقل من سطر إلى سطر ، وأنا أنتقل من خطأ إلى خطأ حتى ضاقت نفسي وألقيت بالمجلة من يدي ولم أستطع أن أستوعب من المقال أكثر من خمسة أسطر !!

إن الفكرة السليمة قوامها الأسلوب السليم ، وإن الكاتب الذي لا يستطيع أن يصحح ما يكتب لا يستطيع كذلك أن يصحح ما يقرأ ، ومعنى ذلك أنه يقرأ على غير فهم ووعي .

ولكني أعرف كثيراً من ناشئة هذا العصر ، وكتاب هذه الأيام قاصرين عن تصحيح لغتهم وتقويم أسلوبهم ، وإني لأعرف كتاباً بيننا يملؤون الدنيا بأسمائهم ويتصدون للنقد والمناقشة وهم حين يجلسون لإراقة المداد على الورق لا يعرفون مصادر الكلام من موارده ، فيتركون هذا لأناس يستخدمون أشخاصاً على أجر معلوم لهذا الغرض ، وعندهم أن هذا ليس بعاب ، بل إنهم ليحسبون التمسك باللغة عنجهية وتقعراً لا يليق بمفكري هذه الأيام

وأنا والله لست أدري ما ذا يكون ذلك الكاتب إذا فقد أول شرط للكتابة ، وأي شيء يبلغ من الأدب إذا لم تكن لديه أداة الأدب ، وهل يجدي هؤلاء شيئاً ما يتشدقون به من أنهم يحذقون لغة أو لغتين أجنبيتين على حين يجهلون اللغة التي يكتبون بها وينتسبون إليها ؟ !

ولكنها بدعة أعجمية ، خلقها العجز وبررها القصور عند هؤلاء ، وإنهم لكتاب من غير أقلام ، وإن حسبوا أنفسهم من الأعلام .

« الجاحظ »